القرآن وأنا
استعادة البيِّنة

رندة حموي

إنَّه معي.. منذ ذكرياتي المبكِّرة وهو معي.. أشعر به في أعماق قلبي.

وحده هو القيّوم عليّ في غمار التغيّرات التي تعتريني والصِعاب التي تنتابني في حياة لا تعرف الاستقرار. هكذا كنت.. ذات يقين فطري بأنَّ الله وحده هو المؤتَمَن على أفكاري، السميع لهمسات قلبي الذي تعلَّق به فِطرياً بلا تعليم..

لقد أحببته واستعنتُ به ووهبته نفسي.. فهو الحامي لهويتي التي كُتِب عليها أن تترعرع في عالَمٍ غريبٍ مُتَبَدِّلٍ ..هويّتي التي كان عليّ تعريف الناس بها مجدَّداً كل بضع سنين.

أنا في نظر الآخرين فتاة عربية مسلمة ابنة دبلوماسي، أما يقيني من حيث علاقتي بربي فهو أنني بكل بساطة فتاة آمَنَت به جلّ وعلا... تلك هي حقيقتي وتلك هي قوَّتي.

صـحـوة

"كم أكره هذا الحديث!" هذا ما قلته في نفسي وقتها، ولكنني مع ذلك لم أستطع -وأنا ابنة الثالثة عشر من العمر- أن أفكر في شيءٍ غير الذي كنت أسمعه! كان الحديث بين والدَيّ وضيوفهم في ذلك المساء الصيفي يدور بحَيَويّةٍ حول بحرة الفسيفساء في فناء دارنا الفسيح المغطّى بدوالي العنب، فهم أصدقاء قدامى طالما اعتادوا على تبادل الطرائف.

كان والدَيَّ مضيفَين كريمَين، فبينما يدير والدي الحديث، تهتمُّ والدتي بتقديم أطباق المقبِّلات اللذيذة المصفوفة حول النافورة.

يا للفرق بين هذا كله وألمانيا!
فها نحن في دمشق في أواخر الصيف العليل وعناقيد العنب تتدلّى فوق رؤوسنا كَثُرَيَّات بنفسجية، وأغصان الياسمين تمتدُّ فوق الجدران كثوب عروسٍ، يتنافس عطرها مع عطر ياسمين الليل النفّاذ. لا بُدَّ أنَّ الكبار كانوا مستمتعين ببرودة الأمسية الدمشقية ولكن لم تسجِّل ذاكرتي الغضَّة أيّة مُتعة. أذكر أنني ساعدتُ أمي يومها في تحضير الضيافة ثم في التنظيف بعد ذهاب الضيوف وبالرغم من أنني ساهمت في غسل الصحون إلا أنني قصدتُ ترك الكؤوس وبقايا الخمر فيها على طاولة المطبخ تعبيراً عن امتعاضي؛ فالمؤمن بحسب معرفتي لا يتناول المُسكرات.
لكن الذي يغلب على ذاكرتي عن تلك الأمسية هو اضطرابي الشديد للذي أسمعه.

كنت، وحتى ذلك المساء، أحسب أنَّ الأنثى والذكر متساويان بالرغم من اختلافهما المبالَغ فيه من منظور المجتمع السوري المتمثِّل بجدتي وخالاتى إذ كُنَّ يذكّرنني بذلك مِراراً في أسلوبهنَّ معي وفي حَدِّهنَّ من حريتي الطفولية الممتعة. كنت أواسي نفسي قائلةً أنَّهن مُسِنّات لم يعرفن قط غير ذلك.. لكن حين سمعت أصدقاء والدَيّ المثقفين العصريين يردِّدون كلاماً شبيهاً بالذي أسمعه من جدتي .. أصابني الذهول.

لم تعرّفني نشأتي -ومنذ طفولتي المبكرة في بريطانيا ثم في الهند وألمانيا- إلى القِيَمِ الاجتماعية السورية ولم يكن لتلك العقلية أي وقع عليّ يُذكر حتى تلك اللحظة. بل إنَّ الذي كان له الوقع الأكبر في التطور الفكري لدّيّ (وهنا أتقدّم بالشكر الجزيل والتقدير العظيم إلى والدَيّ) هو تعريفي بهويتي العربية المسلمة التي لم تعزلني عن الناس في بلاد الغربة بل إنَّ اعتزازي بها جعلني أكثر تقبلاً للآخرين، فالمسلمون لا يؤمنون فحسب بالقرآن العربي آخر رسالات الله إلى الناس أجمعين، بل يؤمنون كذلك بالرسالة الإلهية التي كانت أصل اليهودية والمسيحيَّة، وبصفتي ابنة الدبلوماسية كنت أشعر بالتالي أنّي حاملة ثقافةٍ تسعى إلى التفاهم مع جميع خلق الله.

لم نشعر أبداً أنا وأخي الأصغر بأننا غَريبَين أثناء ترحالنا، بل على العكس، إذ كنا نشارك في احتفالات المجتمعات التي كنا نسكن في وِسْطِها، فالجميع متساوون أمام الله وليس بينهم أحد يمتاز عن غيره، ففي الهند كان لنا صداقات حميمة ولم تتردد عائلتنا عن مشاركتهم احتفالاتهم وارتداء السِروال-قميص والساري. وفي ألمانيا لم يحجم والدانا عن مفاجأتنا بالهدايا الجميلة يوم الاحتفال بعيد ميلاد سيدنا عيسى عليه السلام، وكنّا أنا وأخي نحمل الفوانيس ونغنّي "أو تانن باوم" مع الأصدقاء والجيران في الشوارع المغطّاة بالثلوج. أما في المدرسة الأمريكية فكنت عضو كشّاف وكم شعرتُ بالفخر حين تم اختياري من بين الجميع لتمثيل صفّي في مسابقة التهجئة إذ كنت أحسن التلامذة تهجئة للإنكليزية. وفي أثناء ذلك كله كنّا نعرف مَن نحن، وكنا نشعر بالراحة كعرب وكمسلمين وكنا واثقين بأن الناس في هذا العالَم متشابهون أكثر من كونهم مختلفين.

﴿.... لَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ .... ﴾

﴿آل عمران: ٣٦﴾

وإذ بي بعد سنتين أجد نفسي فجأة ههنا في فناء دارنا الدمشقية أستمع إلى ما يهدِّدُ عزَّتي وسكينتي! لم أدرِ وقتها أن النقاش الدائر من حولي ينمُّ عن حالةٍ نفسية متجذِّرة لدى أكثر المسلمين -وإنْ كان أحدهم مثقفاً وعصرياً- فَحواها أن السيادة للذكور دون الإناث. ولاعتقادي حينئذٍ أن الكبار يحيطون عِلماً بالمواضيع التي يتكلَّمون بها أصابني الذعر للذي أسمعه، وتساءلت: *تُرى، هل وَرَد حقاً في القرآن أن الإناث هنَّ أقلّ مرتبة من الذكور؟*

قرأ أحد الحاضرين أوائل آية من القرآن وَرَدَت على لسان أمٍّ بعد أن وضعت مولودها، علمت فيما بعد أنَّها أم مريم:

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ...﴾

﴿آل عمران: ٣٦﴾[1]

[1] **﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾** ﴿آل عمران: ٣٦﴾

فقال المتحدِّث مؤكِّداً: "أرأيتم فهذا الذي قاله الله، أنَّ الذكر ليس كالأنثى!"
وبينما تردَّد قوله في ذهني هاجمتني أحداث عشتُها وأقوال سمعتها في هذا الشأن منذ وصولي إلى دمشق، ما كنت لأكترث بها مظنَّة أنَّ أصحابها ضيّقي الأفُق، وما كان لها أثر حتى تلك اللحظة.
أمّا وأنا أسمعها الآن جهرةً على ألسنة رجال ونساء مثقفين عصريين صارت تلك الأقوال لا تحتمل التجاهل ولم أستطع إبعادها حتى لالتقاط أنفاسي!
يا إلهي... ما العمل؟ ليس لي من ملجأ ألتجئ إليه.
لقد بدا لي واضحاً -من خلال معرفتي المحدودة باللغة العربية وبإجماع الحاضرين- تفَوُّق الذكر على الأنثى، حتى أن أحدهم بدأ يُعدِّد الملذّات التي تستقبل الرجال في الجنة ثم، وربما حين تذكَّر وجودي بينهم، توقَّف ضاحكاً عن كلامه وقال أنَّ الله لا بُدَّ أن يكون ذكراً.
ماذا؟؟ الله عزَّ وجلَّ ذَكَر؟ ليس في هذا ما يضحك أبداً!!!

بعد أن نام الجميع بقيتُ أتقلَّب في فراشي أفكِّر بالذي سمعته... بَكَيْت.... وصَلَّيْت.
يا ربي: لم أكن أنا مَن اخترتُ لنفسي أن أكون إنساناً أصلاً! ثم أنت الذي خلقتني أنثى وهذه إرادتك، فكيف يمكن أن أحسَبَ عندك أقلّ من غيري لخِلقةٍ أنت خالقها؟
ثم خطر لي خاطر، فإن كنتُ قد تعلَّمتُ شيئاً في حياتي فقد تعلَّمتُ أن التكبُّر لا يمارسه إلا أناسٌ جَهَلَة معتدّون بأنفسهم، وأنَّ الانحياز إلى أفرادٍ دون غيرهم وعدّهم متفوّقين لخِلقةٍ فيهم هي جَور بشري ولا يمكن أن يجور الخالق فيميّز بين مخلوقٍ ومخلوقٍ أو بين إنسانٍ وإنسانٍ لأجل صفاتٍ هو واضعها.
ماذا إذاً عن الآيات التي سمعتُها؟
بدأت أتساءل عمّا إذا كان الناس فعلاً قد فهموا تلك الآيات فهماً جيداً.. وبقيت أتساءل ..
ومرَّت السنون، وتحسَّنَت في أثنائها لغتي العربية وزادت دراستي للكتب الإسلامية وبحثتُ مَلِيّاً في القرآن الكريم... وبعد ذلك كله لم أعُد أتساءل:
فالمسلمون عموماً لا يدركون مَيّزات القرآن وأكثرهم لا يفهمونه جيداً!

لم يكُن ذلك القصور ظاهراً لي إلا بعد أن درست التفسير والسيرة والحديث والفقه والعقيده على يد من اشتهرن بعلمهنّ، فبعد أن قرأت ما قرأت وصرت أترجم معاني ألفاظ القرآن إلى الإنكليزية مستفيدةً من خلفيتي ومستعينةً بدراساتي اتَّضح لي كل ذلك، إضافةً إلى أنَّ *للعوام مفاهيم كثيرة يتمسَّكون بها بالرغم من مخالفتها للحقائق القرآنية!*

إنَّ فهم الناس للكثير من الآيات هو انعكاس لمفاهيم واردة في بعض التفاسير، فمن المتوقّع أن تُعرِض التفاسيرُ عِلمَ المفسِّرين وأن تعكس بعضاً من ثقافة الزمن الذي جُمِعَت فيه، لكننا نجد في التفسير الواحد -أكثر ما نجد- تكراراً لتفاسير الأسلاف بإسناد دقيق يصعب علينا من خلاله معرفة رأي جامع النصوص. قلةٌ هم الذين يتحمَّلون مسؤولية تقديم تفسيرٍ آخر للقرّاء وذلك خشية تحريف الكَلِم عن مواضعه، والمفسِّر أهلٌ في أن يخشى.

كانت نتيجة هذا الحرص عبر العصور أن جرى التناقل الحرفي للعديد من أعمال المفسرين العرب والمسلمين من الألفية الماضية لتنتشر روايات محبَّبة دون غيرها وتترسَّخ في الأذهان ليقلَّ بعد ذلك من يبحث فيما إذا كان من بين تعاليم الناس وآدابهم ما يناقض آيات القرآن أو يُشَوِّه المفاهيم أو لا يقدِر الله حقَّ قدره.

أما عند القرّاء غير العرب ممن يريدون فهم معاني آيات الله بلغاتهم، فإن حُسن فهمهم عالةٌ على المترجم واختياره للتفسير الذي يترجمه ثم حُسنِ فهمه له ثم تقديمه إياه كاملاً وبصدق، وبعد ذلك كله فإنَّ الناتج الأخير مناط بحسن تعبير المترجم بالإضافة إلى مدى استعداد لغة الترجمة أصلاً في الإعراب عن معاني القرآن العربي المبين!

كمثال نورِد الآن كلمةً واحدة أدّى مفهومها إلى كوارث اجتماعية لدى بعض المسلمين:

إنَّ بعض المسلمين الذين يتكلَّمون لغة الأوردو يسمّون المرأة "عَورة" تأثُّراً بما وَرَدَ في الكتب الإسلامية، وتكتب بلغتهم "عورت"، مما حال دون فهمهم للكثير من آيات الله بعد أن صارت الأنوثة عاراً عندهم. ثم ما كان من المتشدّدين فيهم إلا أن غطوا الإناث بالرداء السميك الذي لا يُعرف مِن خلاله شيء عمَّن يرتديه ذكراً كان أم أنثى، ثم أغلقوا المدارس والجامعات والوظائف أمامهنّ لأجل حبس "العَورات" في بيوتهن.

ومثالاً آخر أورِده جرى معي، لمّا انكببتُ على دراسة تفسيرٍ ضخمٍ لابن كثير يعود إلى القرن الثامن الهجري (له مُختصر شديد التداول بين المسلمين)، وتوقَّفت عند سطورٍ أذهلتني وآلمتني، فالآية من سورة القلم تقول:

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿القلم: ٤٢﴾

أما سطور التفسير فقد ورد فيها (من ضمن معانٍ أخرى أكثر لياقةً وانسجاماً مع اللغة):

"يكشف ربنا عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة.."

استغربتُ تكرار تفسير للآية كهذا، فالفعل مبني للمجهول ومن الأَولى -إن كان وصفاً لأحدهم- أن يكون وصفاً لعباد الله يوم القيامة وليس وصفاً لله عزَّ وجلّ. بحثت في القرآن فوجدت الكثير مما يعارض معارضةً تامّة تشبيه الله عزَّ وجلَّ بأيّ من مخلوقاته، وبحثت في اللغة فوجدت أنَّ تعبير "يُكشف عن ساق" هو كناية عن اشتداد وتفاقم الأمر، إذاً فالتشبيه هذا الذي أنكَرَه قلبي -كما وصفه الزمخشري رحمه الله[2]- قد قاله قائلُه جهلاً بعلم البيان وقد اغتُرَّ بحديث وَرَد في شبه ذلك!

حتى ذلك الوقت لم يكن الجهد الذي أبذله لفهم القرآن إلا محاولة لإيجاد أفضل كتاب تفسير متاح أمامي، ولم تكن بعد قد تكشَّفت لي الأدوات التي تُمَكِّنني من البحث في المألوف وغير المألوف بسلام إن شاء الله.

طريق قلَّ من يطرقه

وهكذا كان أنّي وجدتها!

لقد كُشِف لي أمرٌ نقلني من مجرَّد الاطلاع على التفاسير إلى البحث في آيات القرآن وبدَأتْ أنوارُ كلماته ومفاهيمه تتجلّى لي من خلال لسانه العربي المبين؛ وذات مرة وإذ كنت أقرأ القرآن استوقفتني الآية التالية من سورة التوبة:

---

[2] قال الزمخشري في تفسيره:

"معنى { يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ } في معنى يوم يشتدّ الأمر ويتفاقم، ولا كشف ثم ولا ساق، كما تقول للأقطع الشحيح يده مغلولة، ولا يد ثم ولا غل وإنما هو مثل في البخل. **وأما من شبه فلضيق عطنه وقلة نظره في علم البيان، والذي غرّه منه حديث ابن مسعود رضي الله** عنه " يكشف الرحمٰن عن ساقه فأمّا المؤمنون فيخرّون سجداً، وأما المنافقون فتكون ظهورهم طبقاً طبقاً كأنّ فيها سفافيد "

لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ
فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿التوبة: ١٠٨﴾

فالآية تنهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن الصلاة في المسجد الذي بناه المنافقون وتطلب منه القيام في المسجد الذي يغشاه صحابته رضوان الله عليهم. قرأتُ تلك الآية وعاودت قراءتها والتفكُّر في قوله تعالى عن المسجد أنّ "فيه رجال" دون ذِكرٍ لمن فيه من النساء، وتساءلتُ عن ذلك علماً منّي بأنَّ مسجد الرسول كان عامراً بالنساء في جماعةٍ معتَبَرة يحضرن الصلوات، وهذا معلومٌ لدى دارسي السيرة والحديث. ثم تذكَّرت آيةً أخرى في سورة الأحزاب كنتُ حين أسمعها أخشى ألا أُحسَب عند الله من بينهم:

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ
وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿الأحزاب: ٢٣﴾

فكأن هذه الآية هي الأخرى لا تحسب للإناث حساباً!

هل يتفوَّق الذكر على الأنثى حتى في الاعتراف بوجوده، وكل منهما إنسانٌ خلقه الله؟ تُرى هل يصحُّ مِنّا هذا الفهم؟ تيقَّنت وقتها بأنّ ثمَّة شيءٍ لا أفهمه فتساءلت عن معنى كلمة "رجال".

بحثت في معاجم متعددة كمختار الصحاح للرازي ومقاييس اللغة لابن فارس ولسان العرب لابن منظور فوجدتُ أنَّ الرِجال لغةً هم من كانوا على أرجُلِهم غير راكِبين كما في آيتي سورة البقرة وسورة الحج:

فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّـهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ
﴿البقرة: ٢٣٩﴾
وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ
﴿الحج: ٢٧﴾

ثم إن "رجال" في اللغة هي جَمع لثلاث كلمات هي "رجلى" (أنثى) و "رجُلة" (أنثى) و"رجل" (ذكر)؛ جمع لكلمتين مؤنَّثتين وكلمة واحدة مذكّرة!

وعلمت كذلك أنَّه لو اجتمعت اثنتان من الإناث لصَحَّ تسميتهما رَجُلَين، وقد وَرَد في لسان العرب ما يلي:

"وحكى ابن الأَعرابي: أَن أَبا زياد الكلابي قال في حديث له مع امرأَته: "فَتَهايَجَ الرَّجُلانِ "يعني نفسه وامرأَته، كأَنه أَراد فَتَهايَجَ الرَّجُلُ والرَّجُلة، فغَلَّب المذكر."

كم أننا مقصّرون إذاً في فهمنا حين نحسب أنَّ كلمة رجال لا تعني إلا الذكور البالغين!

يا الله!

كم أسعدني استرداد كلمةٍ كانت لعصورٍ طويلة مفقودة التداول بيننا! فكلمة "رجال" إذاً تخصُّ الإناث بقدر ما تخص الذكور، وهنّ النساء على اقدامهنَّ قد استغنَين عن ركوب راحلة.

وعلى الرغم من إدراكي بما أنعم الله عليّ من معرفةٍ بهذه الحقيقة إلا أنني شعرت بالحزن لجهل أكثر المسلمين بها وما ذلك إلا لقلّة استخدامنا المعاجم.

فالغريب في مدارسنا (نحن العرب) هو عدم تدريب طَلَبتنا على فتح المعاجم، بل إنَّ معاني المفردات الواردة في كتب الأدب والشعر ونصوص القرآن نجدها منتقاة لنا، مجهَّزة في أسفل كل صفحة من الكتاب؛ هكذا جَرَت العادة باعتماد المعلومات التي تَرِدُنا من قِبَل جهةٍ رسميةٍ مختصَّة مثل وزارة الإعلام أو وزارة الأوقاف.

تصوروا أننا نتخرَّج من مدارسنا إلى الجامعات ولم نفتح قطُّ معجماً نتعرَّف من خلاله على معنى الكلمات التي نجهلها لأنَّه قد بُتَّ مُسبَقاً فيما وَجبَ علينا اتخاذه مفهوماً دائماً لنا!

ومشكلتنا تتعدّى ذلك إلى ما خسرناه مما كان معلوماً من لغتنا الأم بعد أن بطل لدينا استخدام بعض الكلمات وتبدَّلت لدينا معاني بعضها الآخر. لولا ذلك لما أصبحت كلمة "رجال" في مفهومنا تخصُّ الذكور دون الإناث ولما استبعدت بعض الشعوب الإسلامية النساء عن المساجد. لقد فقدت كلمة "رجال" نصف تعريفها في مرحلةٍ تاريخيةٍ ما بالرغم من انتشار الإسلام في أقاصي الأرض، وقد زامن ذلك على ما يبدو انحسار البداوة العربية واستقلالية المرأة التي ما عادت تُسمّى "رَجُلة.

لولا الذي خسرناه مما كان معلوماً من لغتنا الأم لما أصبح الحمد مُرادفاً للشكر لنجلس عن العمل المُنتِج حامِدين الله، ولما تداخلت مفاهيم الذنب والسيئة والمعصية والخطيئة والإثم ليغدو الكل

مبهَماً فنصبح أمةً آثمة. فالإثم لو قرأنا القرآن هو من أكبر المحرَّمات،[3] والإثم لو تعلَّمنا العربية هو التأخُّر ثم التَخَلُّف![4]

وأمّا عن التأكُّد من معاني الكلمات، فالقرآن هو السبيل إلى ذلك إذ يعطينا المعنى إن نحن انتبهنا! ذلك أنَّ القرآن يفسِّر بعضه بعضاً، وقد ذكر ذلك المفسّرون جميعاً قائلين أنَّ القرآن هو أول ما يجب البحث فيه ولكن لم يطبَّق ذلك بشكل دائم؛ كما رأينا أنَّ القرآن ذَكَر الرجال مقابل الركبان ولم تسجِّل أذهاننا هذه الحقيقة. جدير بالذكر أنَّه قبل عام 1917 لم يكن هنالك فهرس للقرآن حيث كان معظم المفسرين يقومون بجمع أعمال أسلافهم مع إضافة المعلومات والدراسات عليها وقد ظهر عامئذٍ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم جمع محمد فؤاد عبد الباقي (1882-1968) فأصبح أساساً في العديد من المكتبات. أما بالنسبة لي، فمنذ أن اكتشفتُ المعجم المفهرس في أواخر الثمانينات وهو أهم كتاب لدي ولم تتبدَّل مكانته حتى ظهر الإنترنت بمحركات البحث القرآني السهلة الاستخدام.

هكذا كان، فبعد أن فهمت وخبرت بنفسي روعة استعادة مفهومٍ هامٍ بعد ضياعه عن أمَّتنا لقرون، صار هاجسي وأملي هو استعادة أمثاله من المفاهيم الهامّة، وأن أفتح كنوزاً مُخَبّأةً لا تُعَدُّ ولا تُحصى بذات المفتاح. وبحمد الله كان أن استعدتُ بعدها العديد من الكلمات والمفاهيم الهامَّة قدَّم كلٌّ منها منظوراً جديداً رائعاً هو جزء صغير من حقيقةٍ بديعةٍ متماسكةٍ في الإسلام.

ولا أراني أبالغ القول حين أؤكِّد للباحثين في اللغة وفي كتاب الله أنَّ القرآن الكريم يهب القارئ نظرةً عالميةً شموليةً مُذهِلةُ المقوِّمات، يمكن أن تجمعنا جميعاً في سلام وازدهار.

هذا هو أملي وتلك هي بِشارتي.

---

[3] **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّـهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّـهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴿الأعراف: ٣٣﴾

[4] ابن فارس: "أثم: هو البطء والتأخُّر. يقال ناقة آثِمةٌ أي متأخِّرة. والإثم مشتقٌّ من ذلك، لأنَّ ذا الإثمِ بطيءٌ عن الخير متأخّر عنه."

ما كنت أدرك من قبل أنني، وبعد فترة وجيزة من بدء مرحلة البحث هذه، سأجتمع بعالِم لغةٍ سيعيدني سؤالي إيّاه سنوات ماضية إلى تلك الأمسية الصيفية وأنا في الثالثة عشرة من العمر أستمع بامتعاض إلى الكبار يتكلَّمون في آيات الله القائلة "وليس الذكر كالأنثى" وأنَّ عالِم اللغة هذا سيقول ما يلي:

"معلومٌ من حيث اللغة أنَّنا حين نقول 'ليس كذا مثل كذا' معلوم بالضرورة أنَّ الأوَّل هو المفضَّل عليه والثاني هو المُفَضَّل، كقولنا مثلاً 'ليست الفضة كالذهب' ففي الآية التي تسألين عنها نجد الأنثى هي المفضَّل والذكر *هو المفضَّل عليه ولا يُمكِن لمن له علم باللغة أو بقواعد العربية أن يفهم خلاف ذلك."*

ماذا؟ قلتها مذهولة.
ماذا! أعِد عليَّ الذي قلتَه .. رجاءً ....!

قال: "ليس هذا بغريب، فالأنثى التي وضَعَتْها تلك الأم ما هي إلا مريم -أم عيسى عليه السلام!"

ولكنَّ الذي قاله قد أذهَلَني بالفعل! كيف يمكن أن يكون الأمر كذلك؟

كيف يمكن ألا يفقه العرب والمسلمون هذه الحقيقة وأن تكون عقولنا قد طُوِّعَت خلال الألف سنة الماضية إلى الحد الذي لم يعد بإمكاننا تَصَوُّر المُجاراة بين الأنثى والذكر ناهيك عن المساواة أو أفضليّة أم عيسى عليهما السلام على أيٍّ من الذكور كما في الآية المذكورة؟ ثمَّ لماذا بِتنا، ولألف سنة مَضَين، نستشهد بهذه الآية للدلالة على تفوُّق الذكر على الأنثى؟ لماذا؟
لماذا؟ تساؤلٌ مريرٌ بالنظر إلى الماضي.. وحقيقةٌ أمَر.

لكن:
ما يتعيَّن علينا الآن هو التطلُّع إلى المستقبل.
فلنتطلَّع بشغفٍ إلى ما نحقِّقه لدى استعادتنا التعاريف الاصيلة للكلمات العربية والمفاهيم القرآنية:
نستعيد ما كان مُغَيَّباً عنَّا من البيِّنات والهدى، ونغيّر حالنا إلى أحسن حال!

ذلك لأنَّ كتاب الله هو لقارئه قرآناً حيّاً في آنِهِ وفي كل أوان، كلام الحيِّ الذي لا يموت.. (وتلك هي قصة أخرى نحكيها).

نحن الآن في دمشق مجدَّداً أواخر فصل الصيف العليل وعناقيد العنب تعاود التدلّي من عريشها كَثُرَيَّات بنفسجية وأغصان الياسمين تفترش الجدران كثوب عروسٍ يتداخل طيب شذاها مع عطر ياسمين الليل النفّاذ. وها أنا ذا أزور والدَيَّ المُسِنَّين وأستمتع بصحبتهما وبالصوم والإفطار معهما في شهر رمضان المبارك، وإذ تعود بي الذاكرة إلى تلك الأمسية التي سبَّبت لي أرَقاً في الثالثة عشر من عمري أجد ذكراها اليوم يطلق الحمدَ على لساني ويبعث السكينة في نفسي:
لقد كانت تلك أمسيتي المصيرية.

بفضل الله

©Randa Hamwi